



مراسيم تولية الخلفاء وولاية عهودهم في العصر العباسي الأخير
(٥٥٠ - ٦٥٦ هـ / ١١٥٥ - ١٢٥٨ م)

محمد عبد الله القدحيات

أستاذ مشارك

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

جامعة السلطان قابوس

qadahat@hotmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠١٤/١٠/٠١

تاريخ القبول للنشر: ٢٠١٥/١١/١٦

مراسيم تولية الخلفاء وولادة عهدهم في العصر العباسي الأخير (٥٥٠ - ٦٥٦ هـ / ١١٥٥ - ١٢٥٨ م)

محمد عبد الله القدحان

مستخلص

شهدت فترة الدراسة حركة إحياء لمؤسسة الخلافة العباسية بعد تخلصها من سيطرة العناصر الأجنبية، ورافق ذلك رغبة الخلفاء بإحياء المراسيم التي غابت عن دار الخلافة منذ مطلع القرن الرابع الهجري. كانت مراسيم بيعة الخلفاء وولادة عهدهم من جملة المراسيم التي استعادت رونقها خلال هذه المرحلة، فكانت مراسيم التولية تتم وفق نسق منظم، تبدأ منذ اليوم الذي يتوفى فيه سلف الخليفة الجديد، وتنتهي بالبيعة العامة. وقد تتبعت الدراسة تلك المراسيم، مبرزة للبعدين الديني والإعلامي اللذين حرصت مؤسسة الخلافة على إظهارهما، فقد وجدت في هذه المراسيم وما يرافقها من مظاهر احتفالية عاملاً مهماً في تعزيز هيبة الخلافة في نفوس العامة، وتجديد ارتباطهم الروحي بدار الخلافة العباسية وخلفائها، وتأكيدها من جهة أخرى للزعامة الدينية للعالم الإسلامي.

كلمات مفتاحية: العصر العباسي، دار الخلافة، مراسيم، البيعة، احتفالات.

The allegiance-offering ceremony of the caliphs and their heirs in the second Abbasid era (550-656 AH / 1155-1258 AD)

Mohammad Alkadhat

Abstract

The period of this study witnessed a revival of the Abbasid Caliphate Institution after getting rid of foreign control. This was accompanied by a desire to revive the ceremonies that had stopped since the beginning of the fourth century AH. The ceremony of allegiance-offering to the Caliphs and their heirs was among several ceremonies that were revived during this period. The allegiance-offering ceremony was organized according to certain arrangements which begin on the day the former Caliph passes away, and end with a public allegiance-offering ceremony.

This study attempts to trace those ceremonies, highlighting the religious and the media dimensions, which the Caliphate Institution was keen on stressing in these celebrations. The Caliphs saw in these ceremonies and the accompanying festivities and celebrations an important tool to enhance the image and aura of the Caliphate in the hearts of the public. They also saw these ceremonies as an opportunity to enhance the spiritual bond between the public and the Caliphate and the Caliphs. They also saw the ceremonies as a chance to assert their religious leadership of the Muslim World.

Keywords: Abbasid period, allegiance, celebrations, ceremonies, house of Abbasid caliphate.

مقدمة

والواقع فإن عصر السلاجقة لم يختلف عن عصر التسلط البويهى من ناحية موقفهم من الخلافة العباسية إلا ببعض المظاهر الشكلية، أما من الناحية الفعلية فقد بقي الخلفاء مسلوبي السلطة، فلم يتركوا للخلفاء سوى إدارة أمور إقطاعهم (الزهراني، ١٩٨٢: ١٠٧-١١١؛ فوزي، ١٩٨٨: ٣٣١).

ووصل الأمر ببعض سلاطين السلاجقة إلى تهديد الخليفة بطرده من بغداد، كما فعل السلطان ملكشاه (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) فبعد أن حدثت جفوة بينه وبين الخليفة المقتدي بأمر الله (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) فبعث إلى الخليفة: «لا بد أن تترك بغداد، وتنصرف إلى أي البلاد شئت» (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج ١٦: ٢٩٩).

وقد عبّر ابن الطقطقى بشكل جلي عن الحالة التي وصلت إليها الخلافة العباسية بفعل سيطرة العناصر الأجنبية بقوله: «فانظر منذ عهد المتوكل إلى عهد المقتفي ما جرى على واحد واحد من الخلفاء من القتل والخلع والنهب، بسبب تغيير نيات جنده ورعيته، فهذا سمل وذاك قتل والآخر عزل، ثم أسرح طرفك في الدولتين البويهية والسلجوقية» (ابن الطقطقى، ١٩٦٦: ٢٨؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج ١٧: ٣١٤).

ويظهر أن هلال بن المحسن الصائبي (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) قد أدرك الحالة المزرية التي وصلت إليها حال در الخلافة العباسية في هذه المرحلة من عمرها بفعل تغول العناصر الأجنبية عليها وعلى صلاحياتها، فجاء تصنيفه لكتابه «رسوم دار الخلافة» لحفظ ما تبقى «وتخليد ما درج». وقد أشار إلى ذلك في سبب تصنيفه للكتاب: «ولما كانت الخلافة من النبوة، وكان لها من جلاله القدر وفخامة الأمر أعلاها مراقب وأشرفها مراتب ومن أسّ الأعمال وقوانين الأفعال أوضحها معالم وأثبتها دعائم، ومن شروط المكاتبات ورسوم الترتيبات أحسنها طرائق وأحكمها وثائق، ومن حقوق الخدمة وحدود الحشمة أولاها بأولي العقل والمسكة وذوي الحزم والحكمة، وأحراها بأن يتداول ويتفاوض ويتناقل ليكون تذكرة للناسي وتبصرة للناشئ، وطريقاً إلى معرفة ما عظمه الله من شأن الدعوة الهاشمية وأعزّه من سلطان الإمامة العباسية». ويضيف: «فوجدت أكثر ذلك قد درّس بتقادم عهوده وتغير وضوعه، وليس كل من مرّ على عهد اختار أخباره، أو أمر شاهده فألفه» (الصائبي، ١٩٦٤: ٤-٥).

مشكلة الدراسة وأهدافها:

تهدف الدراسة إلى تتبع مراسيم تولية الخلفاء وولاية عهدهم خلال المرحلة (٥٥٠-٦٥٦هـ/ ١١٥٥-١٢٥٨م) من عمر الخلافة العباسية، وذلك من خلال طرح الإشكالية

امتازت المرحلة ٥٥٠-٦٥٦هـ/ ١١٥٥-١٢٥٨م من عمر الخلافة العباسية، التي اصطُح على تسميتها بالعصر العباسي الأخير بميزات عدة، ميزاتها عن الفترات السابقة من عمرها، ونعني بها فترة النفوذ: البويهى ٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٦-١٠٥٥م، والسلجوقي ٤٤٧-٥٥٠هـ/ ١٠٥٥-١١٥٥م. ومن أهم تلك المميزات استرجاع مؤسسة الخلافة العباسية للكثير من الصلاحيات التي كان قد سلبها إياها آل بويه والسلجقة قرابة قرنين من الزمن، فقد انتزعوا كل الصلاحيات التي كانت من اختصاص الخلفاء، فصاروا أصحاب الحل والعقد، والخليفة بأيديهم بغير إرادة ولا اختيار (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١٦: ٢٧١)، واستولوا على جميع أملاكهم، وخصصوا لهم راتباً يومياً، ثم قطع معز الدولة هذا الراتب، وحدد للخليفة إقطاعات يعيش منها (مسكويه، ٢٠٠٠، ج ٦: ١٨٦؛ الكروي، ١٩٨٢: ١٧٨).

ويتضح زوال سلطة الخليفة من كتاب المطيع لله (ت ٣٦١هـ/ ٩٧١م) إلى الأمير البويهى بختيار حين طلب منه مالاً للجهاد، مدعياً أن هذا من واجب الإمام. قال المطيع: «الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وعلى تدبير الأموال والرجال، وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفائي، وهي في أيديكم وأيادي أصحاب الأطراف، فما يلزمني غزو ولا حج، ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكتون به رعاياكم، فإن أحببتم أن اعتزلت عن هذا المقدر أيضاً، وتركتكم والأمر كله» (مسكويه، ٢٠٠٠، ج ٣: ٤٩٦).

ولم يقتنع البويهيون والسلجقة من بعدهم بأخذ السلطة، بل شاركوا الخلفاء في الخطبة التي تمثل رمزا لسيادة الخليفة، وأصبح اسمهم يذكر مع اسم الخليفة، ثم صار ذلك سنة لمن بعده من الأمراء (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج ١٤: ٢٦٠؛ سرور، ١٩٧٦: ٥٦). وصارت السكة- وهي الرمز الثاني لسيادة الخليفة- بيد البويهيين، فحذفوا لقب أمير المؤمنين، واكتفوا بذكر اسمه على النقود، ولم يتوقف الأمر عند ذكر اسمه، بل أضاف لقبه وكنيته (الدوري، ١٩٤٥: ٢٥٣؛ عسيري، ١٩٨٧: ٥٢).

وقد سار السلجقة في تعاملهم مع الخلفاء على النسق الذي سار عليه أسلافهم من البويهيين، فبعد دخول السلطان طغرلبيك بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م أزال اسم آخر ملوك آل بويه، وصارت الخطبة من جديد باسم السلطان السلجوقي (حسنين، ١٩٧٠: ١٣٩؛ حلمي، ١٩٨٦: ٢٨-٢٩).

سار الخليفة المقتفي لأمر الله ٥٣٢-٥٥٥هـ / ١١٣٨-١١٦٠م على نهج سلفه المسترشد في تحقيق استعادة قوة الخلافة العباسية. وكان من حسن طالعه وفاته السلطان مسعود في رجب سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م فكانت وفاته نهاية نفوذ السلاجقة في العراق، ومصادفًا لذلك قول ابن الأثير (ابن الأثير ٢٠١٠، ج ٩: ٣٧٣): «فقد ماتت معه سعادة البيت السلجوقي، ولم تقم لهم بعده راية يعتد بها، ولا يلتفت إليه». وقد شجع ضعف السلاجقة الخليفة المقتفي لاستكمال سيادته، فأمر بجمع الجيش، وخرج على رأسه، فاستعاد الحلة والكوفة وواسط، واستمر بمهاجمة حصونهم في تكريت ودقوقا (ابن الجوزي ١٩٩٥، ج ١٨: ١١٣-١١٤، ابن الأثير، ٢٠١٠، الكامل، ج ٩: ٣٩٦-٣٩٧)، إلى أن استطاع جيش الخلافة في أواخر سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م تحقيق أول انتصار حقيقي على الجيش السلجوقي في موقعة «بكمزا»^(٢) فتكشف لأهل العراق أن الجيش السلجوقي يمكن دحره، فلم تمض أيام حتى أجبر السلطان سليمان على تقبيل «عتبة باب النوبي»^(٣) بدار الخلافة، فكان بذلك أول سلطان سلجوقي يفعل ذلك (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج ١٨: ١٠٢)^(٤).

وقد أسهمت جملة أمور في تحقيق ذلك الانتصار، منها وقوف المقتفي في وجه مصادرة السلاجقة لأموال الناس، فأمر ببيع عقاره الخاص لسداد الأموال المطلوبة، ورفع المصادرة عن الناس (ابن الجوزي ١٩٩٥، المنتظم، ج ١٧، ص ٣١٥). وعندما رأى الخليفة إجحاح السلاجقة في المصادرة وفرض الغرامات على الناس وخروجهم بذلك عن حد المعقول، كتب إلى السلطان يهدده بالخروج عن بغداد، وتسليم دار الخلافة، قائلا: «فإني عاهدت الله أن لا أخذ من المسلمين حبة واحدة ظلما» (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج ١٧: ٣٢٠).

وقد أنشأ الخلفاء القوات المسلحة التي تخضع لإشرافهم المباشر وتأتهم بأمرهم، وعملوا على إصلاح الأوضاع الاقتصادية، وكسب الرأي العام في بغداد وخارجها، واستعانوا ببعض أمراء الأطراف في دفاعهم عن حقوقهم والوقوف في وجه سلاطين السلاجقة (القرزاق، ١٩٧١: ٦٢-٧٧). فقد استطاعت مؤسسة الخلافة بهذا الجيش استعادة كثير من أملاكها في العراق، فمكنت تكريت سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م وفي العام التالي فتحت حديثة عانة، وسيطرت الخلافة على خوزستان سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م. وبعدها بعام استطاعت استعادة بلاد الري وأصبهان وهمدان (ابن الأثير، ٢٠١٠، ج ١٠، ١٨٩، ٢٠٠، ٢٣٢، سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ٢، ٤٠٠، ٦٨٠).

ومن الجدير بالذكر أن خلفاء بني العباس المتأخرين أقبلوا على التمسك بالدين والقيام بقرائضه والدفاع عنه، فقد

الآتية: مدى الارتباط بين الاهتمام بإحياء رسوم دار الخلافة والمشروع الذي نهجه الخلفاء العباسيون في تحقيق التحرر والاستقلال من التبعية للعناصر الأجنبية.

ولأجل بيان ذلك، سيكون تناول الموضوع عبر المحاور الآتية:

- الأوضاع السياسية وانعكاساتها على مؤسسة دار الخلافة العباسية.
- طبيعة المراسيم التي كانت تجري بدار الخلافة العباسية منذ لحظة إعلان خبر وفاة الخليفة وحتى تنصيب خليفة جديد.
- تمسك الخلفاء في ارتداء اللباس الرسمي والبردة النبوية.
- مشاركة حكام الأقاليم في البيعة للخليفة العباسي.
- إصدار الخليفة الجديد مرسوما يعبر فيه عن سياسته تجاه الرعية.
- حرصت مؤسسة الخلافة العباسية على إحياء مراسيم البيعة لولادة العهد، رغم فقدان المنصب لأهميته.

اتبع الباحث المنهج التاريخي القائم على تتبع الروايات التاريخية في المصادر الأصلية خلال فترة الدراسة ثم تحليلها، اعتمادا على مهارات ثلاث: التفسير، والنقد، والاستنباط، واستخدم الباحث هذه المهارت بنسب متفاوتة في تحليل عناصر البحث. كل ذلك لأجل الوصول إلى رسم صورة واضحة المعالم لمراسيم تولية الخلفاء وولادة عهدهم خلال فترة البحث، وانعكاسات تلك المراسيم على الواقع السياسي لمؤسسة الخلافة العباسية.

تمهيد: الأوضاع السياسية للخلافة العباسية

(٥٥٠-٥٥٦هـ / ١١٥٥-١٢٥٨)

يغد الخليفة المسترشد بالله ٥١٢-٥٢٩هـ / ١١١٨-١١٣٥م أول خليفة عباسي طبّق عملياً سياسة تهدف إلى تحرير مؤسسة الخلافة من سيطرة السلاجقة، وترجمة الحقوق النظرية للأسرة العباسية إلى واقع عملي. ويمكن الحكم على أفكاره الاستقلالية من الخطبة التي ألقاها بعد صلاة الجمعة قبل أن يخوض معركته مع السلطان السلجوقي محمود سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م جاء فيها: «فوضنا أمورنا لآل سلجوق فبغوا علينا. بِفَطَالٍ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَفَسَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ». (سورة الحديد، آية ١٦). وقد أعادت الخلافة العباسية في عهد المسترشد إلى نفوذها مساحات كبيرة من الأراضي التي كانت خارج سيطرتها^(١).

الله ونائبه، وظله على الأرض، وقد كان الشاعر سبط بن التعاويذي مثلًا حيًا لتلك الدعاية الإعلامية، فمما قاله في الخليفة المستضيء بأمر الله (ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩م) (سبط بن التعاويذي، ١٩٠٣: ٢):

أنت فليرغم العدى حَجَّةً الله وأنت المِحْجَةُ البيضاء
أنت حَبْلُ الله الذي فاز من أد ننته منه مُسَوِّدَةٌ وولاء

ليس هذا فحسب، بل نجده يصرح بتلك الحقيقة في مدحه للخليفة الناصر لدين الله: (سبط بن التعاويذي، ١٩٠٣م: ٤٤١)

يا نائب الله في الأر ض والخليفة عنه
فَحْنُ نَلْتَمِسُ الرِّز قِ والمَعُونَةَ مِنْهُ

ولا شك أن الشعراء كانوا يعكسون بهذا الشعر وجهة نظر العباسيين في أحقيتهم في الحكم (العبود، ١٩٧٦م: ٧٢).

ويظهر أن مكانة الخلافة وهيبتها قد أخذت بالاستقرار من جديد في نفوس عامة المسلمين في كافة الأقطار وإن وقع خلاف بين حكامهم والخليفة، فهم مجمعون على شرعية الخلافة العباسية حتى في أهلك الظروف، ولعل فيما أشار إليه ابن الفوطي دليلاً على ذلك، ففي عام ٦٠٩هـ / ١٢١٣م وقع الخلاف بين السلطان محمد خوارزم شاه والخليفة الناصر لدين الله، فاجتمع جماعة من خواص السلطان، وقرروا قطع خطبة الخليفة الناصر، وبيعة أحد علمانهم المدعو علاء الملك القنطري، فلما علم أهل خراسان بالأمر، رفضوه، وقالوا: «إن بيعة الناصر صحت عندهم، ولم يظهر لهم خلافتها، فبطل ما كان دبروه» (ابن الفوطي ١٩٦٢-١٩٦٥م)، ج ٤، ق ٢، ١٠٨٥).

كان إحياء مراسيم دار الخلافة من جملة السياسة التي سار عليها أولئك الخلفاء، فقد وجدوا في تلك الرسوم وما يرافقها من مظاهر احتفالية عاملاً مهماً في تعزيز هيبة الخلافة في نفوس العامة، وتجديد ارتباطهم الروحي بدار الخلافة العباسية وخلفائها، وتأكيداً من جهة أخرى للزعامة الدينية للعالم الإسلامي، بخاصة أن حكام الأقاليم المستقلة عن الدولة التي لم يكن يربطها ببغداد غير تبعية اسمية، غدوا خلال هذه المرحلة أشد حرصاً على طلب التقليد وخلع التولية من الخليفة العباسي، كل ذلك لإضفاء الشرعية على حكمهم (انظر: ابن واصل ١٩٥٧م: ج ٥، ٣٥٠؛ الذهبي ٢٠٠٣: ج ١٣، ٦٣٧).

مراسيم تولية الخليفة العباسي

قبل الشروع في الحديث عن مراسيم البيعة للخليفة الجديد لا بد من تأكيد أن الرسوم المتبعة خلال هذه المرحلة وجد

أيقن هؤلاء أن ابتعاد أسلافهم عن الدين أنزل على رؤوسهم المصائب والنكبات وسأط عليهم الأجانب، وأن كل ذلك مناقض لما تصبو إليه أنفسهم من أجله، كونهم نواباً عن الله في أرضه^(٥) وخلفاء نبيه (جواد، ١٩٧٥: ج ١، ١١٩).

وكان عهد الخليفة الناصر لدين الله الذي استمر ما يقارب سبعا وأربعين سنة ٥٧٥-٦٢٢هـ تتويجاً للجهود التي بذلها أسلافه في تخليص دار الخلافة من سيطرة السلاجقة، فكان بحق «أحسن بني العباس المتأخرين اضطلاعاً بأمور الخلافة، فقد وسع مملكته توسعاً لا يبلغه إلا ذو همة حاسمة وطموح عظيم» (فوزي، ١٩٨٩: ١٤).

لم يعد الخليفة خلال هذه المرحلة من عمر الخلافة العباسية شخصية رمزية يختبئ وراءها المغلوب، ليس له من الخلافة إلا الاسم الذي يخطبون به على المنابر لإضفاء الشرعية على حكمهم، بل صار الخليفة مع مرور الأيام هو الحاكم الفعلي لما تبقى من أقاليم الدولة، ونقص العراق وبعضاً من الأقاليم والنواحي المجاورة^(٦).

إضافة إلى ذلك، فإن هذه المرحلة من عمر الخلافة العباسية شهدت إعادة الخطبة في الديار المصرية بعد انقطاع دام قرابة ثلاثة قرون، وكان ذلك سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م بعد القضاء على الخلافة الفاطمية (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١، ١٩٦). وقد أعيدت أيضاً الخطبة للخليفة العباسي على منابر الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة النبوية، بل إن أمر تولية أمراء المدينتين الشريفيتين عاد ليصبح من اختصاص الخليفة العباسي ببغداد (سبط بن الجوزي، ١٩٥١-١٩٥٢م: ج ٨، ق ٢، ٦١٠؛ أبو شامة ١٩٧٤م، ١٢٣).

والواضح أن تلك الجهود لم تفلح في النهاية في الحفاظ على استمراريتها، فكانت تولية المستعصم للخلافة ضربة قاسية لجهود أسلافه، فقد كان مستضعف الرأي، قليل الخبرة بأمور الحكم، تحكم به رجال الحاشية، فساءت الأحوال في عهده (اليونيني، ١٩٥٤م، ج ١، ٢٥٥)، وانتهت بسقوط الخلافة العباسية على يد المغول سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م. (الإربلي، ١٩٦٤: ٢٩١).

جهود الخلفاء العباسيين في إحياء رسوم دولتهم

اقتترنت جهود الخلفاء في استعادة نفوذهم برغبة في إحياء رسوم دار خلافتهم التي كادت تتلاشى، وطال الزمن على تطبيقها في مجالسهم ومقر حكمهم، فقد حرصوا على تأكيد مفهوم ولايتهم الدينية على الأمة، وحرصوا شعراءهم على ترسيخ تلك الحقيقة في قصائدهم من جديد، فصوّر الشعراء الخليفة العباسي تصويراً مفخماً مقدساً، فهو حجة

مراسيم بيعة الخلفاء

تعتبر البيعة جزءًا أساسيًا من منظومة الحكم في دار الخلافة، ولذلك كان لا بد للقيام بأمر المسلمين من الحصول عليها؛ لاستكمال إضفاء الشرعية على حكمه. فبعد أن طرح العباسيون نظريتهم في الميراث النبوي، وقيامهم بأمر الخلافة تمسكوا بالبيعة وأخذها من الرعية (البدور، ٢٠١٣: ٣٣).

تتم مراسيم البيعة للخليفة الجديد وفق ترتيب ونسق منظمين، تتولى الإشراف عليها دار التشريعات بدار الخلافة العباسية على النحو الآتي:

(١) التأكد من وفاة الخليفة

تبدأ مراسيم بيعة الخليفة الجديد في اليوم الذي يتوفى فيه سلفه. وكان هناك جملة من الإجراءات التقليدية المتبعة في مثل هذه الظروف، أولها تأكد كبار رجال الدولة: الوزير وأستاذ الدار^(١٦) وقاضي القضاة من وفاة الخليفة، وذلك بالدخول إلى حجرة الخليفة المتوفى ومعاينة جثته (سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ٦٣٦). جاء في حوادث سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م خبر وفاة الناصر لدين الله فـ «استدعي الأعيان إلى البدرية فشهدوا الناصر ميتا مسجى» (أبو شامة، ١٩٧٤: ذيل الروضتين، ١٤٥). فصدرت أوامر أستاذ الدار بإغلاق أبواب دار الخلافة، وحظر على الجميع الركوب في ذلك اليوم، ثم أعلن خبر الوفاة والحداد، وقد تعلن في الوقت نفسه حالة الاستعداد لدى العسكريين خوفًا من حدوث أي طارئ (ابن الأثير ١٩٦٣م، ١٥١). فلما توفي المقتفي سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م «أصبحت أبواب دار الخلافة كلها مغلقة إلى قريب الظهر، وأغلق باب النبوي^(١٧)، وركب العسكر بالسلاح» (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١٨، ١٣٨). ولما توفي المستنصر بالله سنة ٦٤٠هـ / ١٢٣٢م «تقدم بتعيين الأمراء لحراسة البلد» (مجهول، ١٩٩٧: ١٨٩).

وعلى الرغم من حالة الحزن والحداد التي تعيشها البلاد بما في ذلك دار الخلافة، إلا أن الأمر يتطلب سرعة اتخاذ الإجراءات اللازمة لأخذ البيعة للخليفة الجديد، فلا يجوز أن تبقى الأمة بلا خليفة أكثر من ثلاثة أيام^(١٨).

(٢) اختيار لقب جديد للخليفة ونقش لخاتمه

ويتم ذلك قبل الشروع في مراسيم البيعة، فلا بد للخليفة الجديد من اختيار لقب يُعرف به ويُبايع عليه^(١٩). وكانت الحاشية وعلى رأسهم كاتب الإنشاء يقدمون للخليفة الجديد قائمة بألقاب عدة، يختار منها ما يرغب به (مجهول،

لبعض جوانبها وصف مُدَوَّن منذ القرن الخامس الهجري. ونقصد بذلك ما دونه هلال بن المحسن الصابئ (ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م) في مصنّفه «رسوم دار الخلافة»، فقد أسهم الصابئ بهذا العمل في حفظ تلك الرسوم من الضياع. ومن هذا المنطلق يُعد الصابئ رائدًا في تفصيل مفاهيم رسوم دار الخلافة العباسية، فجاء كتابه خلاصةً لتجاربه ومشاهداته المباشرة^(٢٠)، وحصيلة لما قرأه في الكتب أو استمع إليه من أصحاب التجارب، لذا يعد الكتاب بمثابة دستورًا للعاملين بدار الخلافة^(٢١).

إن الثابت الوحيد الذي لم يتغير أو يندثر من رسوم دولة بني العباس هو اتخاذ الخلفاء العباسيين السواد شعارًا رسميًا لدولتهم، فكانت راياتهم سوداء، كما كان السواد لباسهم الرسمي^(٢٢)، واستمر السواد رمزًا للدولة العباسية حتى سقوطها عام ٦٥٦هـ، وفي ذلك يقول سبط بن التعاويذي في معرض تهنته للخليفة الناصر لدين الله بتوليه الخلافة (الأيوبي، ١٩٦٤: ٦-٧):

طاف يسعى بها على الجلاس كقضيبي الأراكة المياس
بدر تم غازلت من لحظة ليلة نادمته غزال الكناس
ذلتته لي المدام فأمسى لين العطف بعد طول شماس
إلى أن يقول:

كيف لا يُفضّل السواد وقد أضحى حى شعارًا على بني العباس
أمناء الله الكرام وأهل الجود والحلم والتقى والباس
علماء الدين الحنيف وأعلام الهدى والضراغيم الأشواس

لقد كان الارتباط وثيقًا بين العباسيين واتخاذهم السواد شعارًا ورمزًا لدولتهم، ولم تقبل رعيته تغييره حتى لو كان ذلك بأمر من الخليفة نفسه، كما فعل الخليفة المأمون سنة ٢٠١هـ / ٨١٦م بعد البيعة لعلي الرضا بولاية العهد، فأمر بطرح السواد، وجعل الخضرة^(٢٣) شعارًا للدولة (الطبري، دت)، ج ٨، ٥٥٤؛ مسكويه، ٢٠٠٠: ج ٤، ١٣١). لقد كان لهذا الإجراء أثره في أهل بغداد، الذين قاموا بدورهم بخلع المأمون والبيعة لإبراهيم بن المهدي (الطبري، دت)، ج ٨، ٥٥٤؛ مسكويه، ٢٠٠٠، ج ٨، ٥٥٥)، لذا لم يكن أمام المأمون إلا ترك مدينة مرو والعودة إلى بغداد، وبعد ثمانية أيام من وصوله إليها أصدر مرسومًا بالعودة إلى السواد لباسًا رسميًا وشعارًا للدولة (ابن العمراني، ٢٠٠١: ٩٩). يقول مسكويه: «فلما رأى المأمون طاعة الناس له في لبس الخضرة مع كراهتهم لها جمع الناس، ثم دعا بسواد فلبسه، ودعا بخلعة سواد فألبسها طاهرًا، ثم دعا لقواده بخلع السواد، وطرح الناس الخضرة» (مسكويه، ٢٠٠٠: ج ٤، ١٤٥).

ولما كانت البيعة تكون في أيام العزاء بالخليفة المتوفى، فإن الرسوم تقضي بأن يرتدي الجميع ملابسهم الرسمية ذات اللون الأبيض، وهو لباس العزاء، فلما بويع المستنصر «جلس وعليه قميص أبيض، وبقيار أبيض، وعليه طرحة قصب بيضاء» (الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٣، ٦٤٠).

وتكون بيعة الخليفة على مرحلتين، في المرحلة الأولى يُباع من قبل أمراء البيت العباسي وكبار رجالات الدولة: الوزير وأستاذ الدار، وقاضي القضاة ونقيب: الطالبين والعباسيين، وكبار موظفي دار الخلافة، وهو ما يعرف بالبيعة الخاصة.

وفي اليوم التالي لتلك البيعة تكون بيعة العامة، تتولى دار التشريعات^(٢٣)، بإشراف مباشر من أستاذ الدار الإعداد والتجهيز لها. ومن جملة تلك الترتيبات الإشراف على دخول الناس لدار الخلافة واصطفاهم وفق نظام معين، يسهل من خلاله توجههم إلى شبك الناج (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١٨، ١٩١؛ النويري، (د ت)، ج ٢٣، ١٧٢) الذي يجلس فيه الخليفة لتقديم البيعة، ويقف بين هذه الصفوف كبار رجالات الدولة من العسكريين. أما رجالات الدولة من أصحاب الوظائف الديوانية فيقفون على يمين الشباك ويساره (مجهول، ١٩٩٧: ١٩٠). والشباك في القبة المشرفة على بستان التاج المطل على دجلة (ابن الأثير، ١٩٦٣: ١١٤). فإذا حضر الخليفة، رُفعت الستارة، فيقبل الجميع الأرض (مجهول، ١٩٩٧: ١٩٠)، ثم يجلس الخليفة متوجهًا إلى القبلة (الغساني، ١٩٧٥: ٤٢٠).

بعد أن يستقر الخليفة في مجلسه، تبدأ مراسيم البيعة العامة، فيصعد الوزير وأستاذ الدار على أول درجتين من السلم المخصص لصعود الناس، ثم يتولى أستاذ الدار أخذ البيعة من الناس (الأيوبي، ١٩٦٨: ٥) ويلتزم لفظها. ولفظ البيعة كما أورده ابن الساعي في تاريخه: «أبايع سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على الجميع - اسم الخليفة - على كتاب الله وسنة نبيه، واجتهاد أمير المؤمنين، وأن لا خليفة سواه» (ابن الساعي، ٢٠١٠: ٣١٨). وفي حالات استثنائية كان يتولى قاضي القضاة أخذ البيعة للخليفة من الرعية (ابن الأثير، ١٩٦٣: ٢١؛ السبكي، ١٩٩٩: ج ٤، ١٦٦).

ويستمر جلوس الخليفة للبيعة العامة ثلاثة أيام، يكون جلوسه في كل يوم من الصباح إلى صلاة الظهر. (الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٣، ٦٤٠)، وفي مساء اليوم الأول يجلس في ديوان التاج للعزاء بسلفه (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١٨، ١٩١). أما اليوم الأخير، فيخصص للبيعة من تخلف من الأمراء وغيرهم من الناس ممن لم يستطع الحضور في الأيام السالفة (سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ٢، ٣٥٥).

١٩٩٧: ١٨٩)، فاختر أبو عبد الله محمد لقب المقتفي لأمر الله (السيوطي، ١٩٩٧: ٥١٦)، وتلقب يوسف بن المقتفي (ت ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) بالمستنجد (الإربلي، ١٩٦٤: ٢٧٦)، أما أبو الحسن محمد (ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩م) فاختر لقب المستضيء بأمر الله (الإربلي، ١٩٦٤: ٢٧٨)، واختار ابنه أحمد لقب الناصر لدين الله (ابن الكازروني، ١٩٦٤: ٢٤٣)، واختار ابنه أبو نصر محمد (ت ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) لقب الظاهر بأمر الله (أبو شامة، ١٩٧: ١٤٥؛ ابن الأثير، ٢٠١٠: ج ١، ٤١٨)، وتلقب أبو جعفر منصور ابن الظاهر (ت ٦٤٠هـ / ١٢٢٦م) بالمستنصر بالله (أبو شامة، ١٩٧٤: ١٥٠)، أما آخر خلفاء بني العباس فقد تلقب بالمستعصم بالله (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) (الإربلي، ١٩٦٤: ٢٧٥).

ويتوجب على الخليفة الجديد اختيار نقش خاتمه، خاصة أنه خلال أيام البيعة تصدر مراسيم تولية لبعض رجال الدولة، ويكتب ديوان دار الخلافة ملوك الأطراف والسلطين يعلمهم بالبيعة للخليفة، ومثل هذه المراسيم والكتب بحاجة إلى إمضاء الخليفة وختمها بخاتمه، فكان نقش خاتم المقتفي «كن من الله على حذر تسلّم» (الإربلي، ١٩٦٤: ٢٧٧)، ونقش خاتم المستضيء بأمر الله «من فكر بالمال عمل للانتقال» (الإربلي، ١٩٦٤: ٢٧٨). أما الناصر فكان نقش خاتمه «رجائي من الله عفوه» (الإربلي، ١٩٦٤: ٢٨٠). واختار الخليفة الظاهر نقش خاتمه «راقب العواقب» (الإربلي، ١٩٦٤: ٢٨٤). وكان نقش الخليفة المستنصر بالله «الغفو بك أولى» (الإربلي، ١٩٦٤: ٢٧٥).

٣ ارتداء اللباس الرسمي والبُرْدَة

وبعد استكمال جميع الترتيبات للبيعة، يخرج الخليفة الجديد مرتديًا اللباس الرسمي، الذي يجمع بين الطابعين: المدني والعسكري. يتكون لباس البيعة من: الطرحة^(١٦) والعمامة والقميص^(١٧) والقباء^(١٨). وقد وصف ابن الساعي هيئة الخليفة المستنصر ولباسه يوم بيعته، حيث كان في جملة المبايعين للخليفة سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م: «فلما رُفعت الستارة، شاهدته وقد كَمَل الله صورته... وعليه قميص أبيض، وبقيار أبيض مسكن، وعليه طرحة قصب بيضاء» (ابن الساعي، ٢٠١٠: ج ٩، ٣١٨)^(١٩).

وكانت البُرْدَة^(٢٠) من أهم شارات الخلافة التي حرص الخلفاء العباسيون على ارتدائها والتوشح بها فوق ملابسهم الرسمية في أيام البيعة^(٢١). أشار ابن الساعي في حديثه عن بيعة الظاهر إلى ذلك: «جلس بثياب بيضاء وعليه الطرحة، وعلى كتفه بُرْدَة النبي - صلى الله عليه وسلم - في شبك القبة التي بالتاج»^(٢٢).

وإذا ما انقضت أيام العزاء، فإن الخليفة يأمر بالإتعام على رجال دولته بالخلع^(٢٥). ذكر السيوطي (السيوطي، ١٩٩٧: ٥٢٥): «أنه لما استُخلف المستضيء بأمر الله خلع على أرباب الدولة وغيرهم، فحكى خياط المخزن أنه فصل ألفا وثلاثمئة قباء إبريسم»^(٢٦). أما الخليفة المستنصر، فذكر ابن الساعي أن عدد الخلع بلغ أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمئة خلعة (ابن الساعي، ٢٠١٠: ٣١٦).

ويتخلل أيام البيعة جملة أمور، منها نظر الخليفة في أمر تولية كبار رجالات الدولة، فإما أن يُبقي على من كانوا في عهد سلفه، أو يستبدلهم بأشخاص آخرين (مجهول، ١٩٩٧: ١٩٠-١٩١). فلما بويح المستضيء بأمر الله عمد إلى إعفاء غالبية أصحاب الوظائف من وظائفهم، بخاصة موظفو دار الخلافة (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١٨، ١٩١). أما الناصر لدين الله فقد أمر بعزل النقيب أبي الهيجاء وإسناد المنصب للنقيب السابق ابن الزوال (الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٢، ٤٧٥). أما المستنجد والمستنصر فقد أقرّا جميع من كان يتولى الولاية لسلفهما (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١٨، ١٤٤؛ ابن الساعي، ٢٠١٠: ٣١٨؛ الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٣، ٦٣٩).

ويشهد اليوم الأخير من أيام البيعة صدور مرسوم من ديوان الخليفة يُحدّد الخليفة من خلاله السياسة العامة للدولة، ويحذّر ولاته وحكام الأقاليم من الظلم وسوء التدبير بحجة إقامة الشرع، ومراعاة أمر الرعية. ويُقرأ المرسوم الخلافي في جميع جوامع بغداد وغيرها من المدن، وتُرسل نسخ منه إلى حكام الأقاليم. جاء في مرسوم أصدره الخليفة الظاهر بعد توليه الحكم: «بسم الله الرحمن الرحيم، اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا، ولا إغضاؤنا احتمالا، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي، حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكا؛ لأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من برائن ليث باسل، وأنياب أسد مهيب، تنفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمتناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم، وتمزجون باظلم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا، وبفقركم غنى، وبباطلكم حقا، ورزقكم سلطانا يقيل العثرة، ولا يؤاخذ إلا من أصر، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فإن سلكتكم مسالك خلفاء الله في أرضه وأمانته على خلقه، وإلا هلكتم والسلام» (ابن كثير، ٢٠٠٧: ج ١٥٠، ١٥١).

ويشارك في البيعة العامة للخليفة كل من حضر إلى بغداد من أهل الأقاليم خلال أيام البيعة، فلما توفي الخليفة المستضيء بأمر الله واستخلف الناصر لدين الله وافق ذلك وجود الشيخ ضياء الدين الشهرزوري رسولا من قبل السلطان صلاح الدين الأيوبي، فحضر وبايع نيابة عن مرسله (أبو شامة، ١٩٩٥: ج ٣، ٥٠-٥١).

وإذا وافق أمر البيعة للخليفة موسم الحج وتوافد الحجاج إلى بغداد، فقد كان ذلك فرصة لأخذ البيعة منهم للخليفة الجديد، حدث مثل ذلك عند البيعة للخليفة الناصر، فكان حجاج خراسان في جملة المبايعين للخليفة (أبو شامة، ١٩٩٥: ج ٣، ٥٢).

وتأكيدًا للزوم الطاعة وامتنال أمر البيعة، فقد اقتضت المراسيم حضور أحد كبار الفقهاء، وهو بدوره يخطب بالجمع مؤكداً أهمية البيعة، ووجوب لزوم الطاعة للخليفة، ويقرأ بأعلى صوته قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَن يَكْفُرْ فَمَنْ أَكْفَرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: الآية ١٠)^(٢٤).

وتُختتم مراسيم البيعة بتوكيل الخليفة أحد كبار رجال دولته الوكالة الجامعة التي تخول صاحبها التصرف بأملكه وعقاراته وأراضيه وإنتاجها بيعًا وشراءً، وقد أورد الذهبي نصًا من تلك الوكالات في أخبار بيعة الخليفة الظاهر: «وأحضر بين يدي الشباك شمس الدين أحمد بن الناقد، وقاضي القضاة أبو صالح الجيلي، وفرقيا المنبر، فقال الوزير لقاضي القضاة: أمير المؤمنين قد وكل أبا الأزهر محمدا هذا وكالة جامعة في كل ما يتجدد من بيع وإقرار وعتق وابتياح. فقال قاضي القضاة: أهكذا يا أمير المؤمنين، فقال: نعم» (الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٣، ٦٤٠) ووكّل أيضا المستعصم وزيره أحمد بن الناقد الوكالة الجامعة أيضا (الغساني، ١٩٧٥: ٥١٠؛ مجهول، ١٩٩٧: ١٩١).

وفي مساء كل يوم من أيام البيعة، بعد أن تُسبل الستارة، يقوم الخليفة من مجلسه، ثم يتوجه رجالات الدولة وعلى رأسهم الوزير للعزاء بالخليفة المتوفى (ابن الساعي، ٢٠١٠: ٣١٦) حيث تقرأ الختمة، ويعظ الوعاظ، وينشد الشعراء أشعارًا تتضمن العزاء بالخليفة المتوفى، والهناء للخليفة الجديد، وفي مساء اليوم الثالث من أيام العزاء، يُصدر الخليفة أمره إلى رجال الدولة بالقيام من مجلس العزاء ومباشرة أعمالهم (مجهول، ١٩٩٧: ١٩٢-١٩٢).

وبالمقابل، فإن مؤسسة الخلافة العباسية كانت حريصة على منح حكام الأقاليم ما يطمحون إليه بإرسال التقليد والخلع، فبعد أن بويح للخليفة الناصر توجهت الرسل إلى النواحي بإقامة البيعة للناصر لدين الله، وهي تحمل معها التقليد والخلع (الأيوبي، ١٩٦٨: ٦-٥؛ الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٢، ٤٧٥) فسار شيخ الشيوخ صدر الدين إلى البهلوان صاحب همذان والري، وأرسل رضي الدين الفزويني مدرس النظامية إلى الموصل (ابن الأثير، ٢٠١٠: ج ٩، ٤٤٣). وكذلك لما بويح للظاهر بأمر الله، أرسل الخليفة محيي الدين يوسف بن الجوزي بالخلع والتقليد إلى كل من: المعظم والكامل والأشرف حكام مصر والشام (الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٣، ٦٣٧).

ويسمى التشريف الذي يُرسل لهؤلاء السلاطين بالتشريف الإمامي (الصابي، ١٩٦٤: ٩٣) فبعد أن بويح للخليفة الناصر لدين الله أرسل التشريف وعهد التولية إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي مع شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم وبشير الخادم «فكان يوم وصولهما إلى دمشق كيوم عيد، تلقاه السلطان بالتعظيم والتبجيل» (الأيوبي، ١٩٦٨: ٥١).

حرص حكام الأقاليم من السلاطين والأمراء على إظهار أمر التشريف والتقليد أمام رعاياهم، فما إن يصل الرسول الذي يحمل التشريف إلى أطراف عواصمهم حتى يخرج السلطان وحاشيته بموكب احتفالي لاستقباله، فقد أشار أبو شامة في أحداث سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م نقلاً عن العماد الكاتب إلى وصول الرسل بالتشريف والتقليد للسلطان صلاح الدين الأيوبي: «وفي رجب وصلت رسل الديوان العزيز الناصري... بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد، فتلقيناهم بالتعظيم والتعجيل، وركب السلطان للتلقي، وعلى صفحاته بشائر الترقى، فلما تراءى له الرسل الكرام، ووجب له الإجلال والإعظام، نزل وترجل، وأبدى الخضوع وتوجل، ونزل الرسل إليه، وسلموا عن أمير المؤمنين عليه، فقبل القرض، وقبّل الأرض، ثم ركبوا، ودخلوا المدينة» (أبو شامة، ١٩٩٥: ج ٣، ٦٥-٦٦).

وفي اجتماع احتفالي، يُقرأ نصّ التقليد، ثم يقوم رسول الخليفة بوضع التشريف على كتفي السلطان، فيلبسه، ويركب بموكبه لإظهاره لرعيته (ابن واصل، ١٩٥٧: ج ٥، ٣٥٠). ففي عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م وبعد أن وصل التقليد والتشريف من بغداد، ركب صلاح الدين بموكب «وعليه الملابس النبوية والتشريفات الإمامية» (الأيوبي، ١٩٦٨: ٥١). وفي عام ٦٠٤هـ/١٢٠٨م وصل تشريف من الخليفة الناصر لدين الله إلى السلطان العادل وإلى أولاده ووزيره «فركب العادل وولده ووزيره بالتشريفات إلى ظاهر البلد، ثم عادوا إلى القلعة» (القلقشندي، ١٩٨٠: ج ٣، ٥٩؛ المقرئ، ١٩٧٨: ج ١، ٤٢٥).

مشاركة حكام الأقاليم في البيعة للخليفة

كانت بغداد تشهد خلال أيام البيعة توافد حكام المدن والأقاليم القريبة الذين يستطيعون الوصول إليها خلال الأيام الثلاثة الأولى؛ لتقديم واجبي العزاء والبيعة والتهنئة في الوقت نفسه. تتولى دار التشريعات الاستعداد لاستقبالهم، فيخرج الموكب الخلافي، وعلى رأسه أحد كبار الأمراء أوقادة الجيش، فعندما حضر الأمير إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ ابن صاحب الموصل^(٢٧) لأجل البيعة للخليفة المستعصم بالله، وبعد مراسيم الاستقبال، دخل بغداد مرتدياً ملابس العزاء، ثم توجه إلى باب النوبي، فقبل العتبة، ثم توجه إلى دار الوزارة، فقدم العزاء بوفاء المستعصم، والتهنئة بتولي الخليفة المستعصم (مجهول، ١٩٩٧: ١٩٤). وجرت تلك المراسم أيضاً عند وصول صاحب شهرزور^(٢٨) إلى بغداد للغاية نفسها (مجهول، ١٩٩٧: ١٩٤-١٩٥). وفي حال عدم تمكن أحدهم من القدوم، فإنه يرسل أحد كبار رجاله للقيام بذلك نيابةً عنه (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١٨، ١٩٤؛ سبط بن الجوزي، ١٩٥١-١٩٥٢: ج ٨، ٢، ٣٥٥).

ويتوافق أمر البيعة ببغداد مع أخذ البيعة في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية، فإن ديوان دار الخلافة يكتب بأمر البيعة للخليفة إلى حكام تلك الأقاليم (ابن الساعي، ٢٠١٠: ٣١٨).

كانت بيعة حكام الأقاليم ورعاياهم ذات أهمية بالغة للطرفين: الخليفة ببغداد، الذي هو بحاجة لتأكيد نفوذه السياسي والروحي بين أبناء تلك الأقاليم، بالمقابل أبدى هؤلاء الحكام اهتماماً بالغاً في الحصول على التقليد، وخلع التولية من لدن الخليفة العباسي الجديد يمثل الشرعية التي تضيفها الخلافة العباسية على حكمهم (الأيوبي، ١٩٦٨: ٥١؛ مجهول، ١٩٩٧: ١٩١)، لذا فعندما سير الخليفة الناصر لدين الله الرسل إلى البهلوان حاكم همذان، ظهرت منه علامات التردد في البيعة، فقام رسول الخليفة مخاطباً عسكره وحاشيته: «ليس لهذا عليكم عهد ما لم يبايع أمير المؤمنين، بل يجب أن تخلعوه من الإمارة، مما اضطر البهلوان إلى البيعة للناصر والخطبة له على منابر همذان» (ابن الأثير، ٢٠١٠: ج ١٠، ٤٤٣).

لذلك كان الحرص واضحاً من حكام الأقاليم على الاستعجال بالبيعة للخليفة، ففي الرسالة الجوابية التي أرسلها السلطان غياث الدين الخوارزمي سلطان الدولة الخوارزمية رداً على رسالة ديوان دار الخلافة التي أمره فيها بأخذ البيعة من رعاياه للخليفة المستنجد، أجابه أنه قد أخذ البيعة للخليفة من نفسه أولاً، ثم من أتباعه ورجال دولته ثانياً، وأمر بالخطبة باسم الخليفة وضرب السكة باسمه أيضاً (الوطواط، ١٣١٥هـ: ج ١، ٣٢).

المراسيم الاحتفالية بدار الخلافة بعد الانتهاء من أمر البيعة

يعد خروج الخليفة بموكبه من جملة المراسيم الاحتفالية التي حرص الخلفاء على الالتزام بها، ففي أول يوم جمعة يلي البيعة، يستعد الخليفة للخروج إلى جامع القصر لأداء صلاة الجمعة، حيث تتولى دار التشریفات ترتيب الموكب الخلافي. وتتبع أهمية حضور الخليفة الجديد بهذه الأبهة من رغبته في إظهار التقرب منهم، وفي الوقت نفسه، فرض هيئته بين أفراد رعيته. ففي صباح ذلك اليوم يتوجه الخليفة بموكب رسمي يرافقه كبار رجالات دولته، يخترق الموكب وسط بغداد حتى يصل إلى جامع القصر (ابن الساعي، ٢٠١٠: ٣١٩). وبعد أن يجلس الخليفة وأعيان دولته، يخطب الخطيب خطبة، يختمها بالدعاء للخليفة. ويخطب أيضاً للخليفة في الوقت عينه في جميع أرجاء دولة الخلافة، وتُنثر الدنانير الذهبية عند ذكر اسم الخليفة (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١٨، ١٩١؛ الأيوبي، ١٩٦٨: ٥).

وللغاية نفسها، فقد حرص الخلفاء، بعد توليهم الحكم، على القيام بجولات لأحياء مدينة بغداد، حيث يخرج الخليفة بموكب مهيب يرافقه فيه كبار رجالات الدولة. وصف الأيوبي خروج موكب الخليفة الناصر، حيث تأهب جميع الأمراء والقادة وتوجه الجميع إلى دار الخلافة ودخلوها من باب النصر، ثم ساروا على طبقاتهم إلى بستان الأربعين^(٢٩) ينتظرون خروج الخليفة، فخرج وعليه جبة بيضاء وطيلسان أبيض. سار الخليفة وعن يمينه أستاذ الدار أبو الفضل ابن صاحب، وخلفه الخدم الخاص، فلما رأى الجمع الخليفة قبلوا الأرض، ودعوا له، ثم تقدم الجميع للسلام عليه، وفي مقدمتهم الوزير. والرسم في السلام تقبيل «الركاب الشريف»، أما رد الخليفة على التحية فيكون بالإشارة «ولا يرد على أحد جهراً» (الأيوبي، ١٩٦٨: ٣٩-٤٠). ثم أمر الخليفة بخروج الموكب، يتقدمه بنفسه راكباً من باب النصر، والجميع مشاة بين يديه، ولا يسمح لأحد بالركوب إلا بإشارة من الخليفة. وأول من يركب أستاذ الدار ثم الوزير، ثم الأمراء وكبار رجالات الدولة، يسير الموكب إلى أن يصل إلى الميدان، فيدخل الخليفة عن يمينه أستاذ الدار وعن يساره الوزير، بعد ذلك يتحرك الموكب وفق تنظيم وترتيب يشرف عليه متولي دار التشریفات إلى أن يصل إلى الكُشك^(٣٠) الذي أُعد سلفاً لإقامة الخليفة، ثم يعود الخليفة وفق الترتيب السابق إلى دار الخلافة (الأيوبي، ١٩٦٨: ٣٩).

البيعة لولاية العهد

أظهرت مؤسسة الخلافة اهتماماً واضحاً بأمر البيعة لولاية العهود؛ وذلك لأنها إقرار من الأمة بشرعيتهم، وأن من يُبايع ولياً للعهد يعني حصوله على الموافقة ليصبح خليفة، فلا يتعدى الأمر تجديد البيعة لهم عندما يصبحون خلفاء (البدور، ٢٠١٣: ٣٣).

وبعد أن يختار الخليفة ولياً لعهد، تقوم دار التشریفات بالإعداد ليوم البيعة الذي يحدده الخليفة، حيث يتوافد إلى دار الخلافة كبار رجالات الدولة من أصحاب المناصب الإدارية والعسكرية، وكذلك قاضي القضاة وأصحاب الوظائف الدينية، ويحضر أيضاً أمراء البيت العباسي، إذ يعد حضور هؤلاء بمثابة شهود على البيعة، فإذا ما التأم الجمع في المجلس، دخل الخليفة وأعلن اسم ولي عهده (الماوردي، ١٩٨٩: ١٩؛ القلقشندي، ١٩٨٠: ج ١، ٣٢-٣٩).

أما عن طريقة أخذ البيعة، فبعد إعلان اسم ولي العهد الجديد، يبادر الناس إلى مصافحته أو تقبيل يده، ويكون أمراء البيت العباسي أول المبايعين (الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٢، ١٢٧).

والمتبع في هذا أن حكام الأقاليم وولاية المدن بعد أن تأتيهم كتب الخليفة بأخذ البيعة لولي عهده، يعقدون مجالس خاصة لهذه الغاية، وتتم تلك المراسيم بحضور رسول الخليفة الذي يحمل مرسوم البيعة (أبو شامة، ١٩٧٤: ١٣٠؛ الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٢، ص ٦٨٧)، ثم تتوجه الوفود بعد ذلك من تلك الأقاليم إلى عاصمة الخلافة لتقديم البيعة والتهنئة لولي العهد (أبو شامة، ١٩٧٤: ١٣٠).

وفي بعض الأوقات كانت البيعة لولي العهد توافق موسم الحج، فكان ذلك فرصة ذات أهمية بالغة حرصت مؤسسة الخلافة على استغلاله، حيث اجتمع المسلمون من كل الأقطار، لذا فقد كانت من جملة مهام أمير الحج في تلك الحالة أن يتولى أخذ البيعة ممن حضر الموسم من المسلمين، فإذا ما وصل الراكب إلى مكة المكرمة، فإن أمير الحج يقوم بتسليم مرسوم الخليفة بتولية ولي عهده إلى أمير المدينة، وهما بدورهما يأخذان البيعة ممن حضر الموسم (مجهول، ١٩٩٧: ١٣٠).

واستكمالاً لأمر البيعة لولي العهد، يقوم الخليفة بعقد لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل أو الولاية (الطبري، دت: ج ٩، ١٧٦).

وكان الرسم في جلوس ولي العهد في مجلس الخليفة أن يكون على يمين الخليفة. وتُهيأ له فرس من خيل دار الخلافة، تربط في إسطبل الدار على يمين مركوب الخليفة

وبعد الإغفاء من منصب ولاية العهد، تصدر أوامر الخليفة بإزالة اسمه ونقشه عن السكة والأوراق الرسمية، جاء في خبر خلع الأمير محمد عن ولاية العهد سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م: «فأسقط اسمه من السكك والمنابر والأقلام»^(٣٤).

خلاصة الدراسة:

كان من النتائج التي ترتبت على تحرر مؤسسة الخلافة العباسية من سيطرة العناصر الأجنبية اهتمامها الواضح في إحياء رسوم دار الخلافة العباسية. وكان من جملة تلك الاهتمامات مراسيم تولية الخلفاء وولاية عهدهم وإظهارها بما يليق بمنصب الخلافة، وقد عكست تلك المراسيم التنظيم الإداري الذي كانت تتم وفقه البيعة، فكانت دار التشريعات الجهة التي تتولى الإشراف على إتمام مراسيم البيعة. وفي الوقت نفسه اهتم الخلفاء بإبراز البعد الديني للبيعة، ويتضح ذلك من خلال حرصهم على ارتداء بردة الرسول- صلى الله عليه وسلم-، وهذا الحرص ناجم عما تضيفه البردة من شرعية دينية على حكم مرتديها.

وينعكس اهتمام الخلفاء خلال تلك المراسيم على حضور كبار الفقهاء وعلى إظهار إجماع علماء الأمة على البيعة للخليفة من خلال مشاركتهم بها، وكان على رأس المشاركين قاضي القضاة. وقد اقتضت البيعة حضور أحد كبار الفقهاء الذي بدوره يخطب الجمع مؤكدا أهميتها، ووجوب لزوم الطاعة للخليفة الجديد.

وكانت البيعة كذلك فرصة مناسبة استغلها الخلفاء في تأكيد زعامتهم الدينية في الأقاليم التابعة. ولو اسميا للخلافة، وتمثل ذلك بمشاركة حكام الأقاليم والأطراف في البيعة للخليفة، وأخذهم في الوقت نفسه البيعة من رعاياهم للخليفة الجديد في أقاليمهم.

ليس هذا فحسب، بل نجد اهتماما واضحا من قبل الخلفاء في استغلال المناسبات الدينية، بخاصة موسم الحج لإعلان البيعة له في مكة في يوم عرفات، فكان يُدعى له في خطبة يوم عرفة، وبهذا إضفاء للشرعية، يكتسبها من بيعة عامة المسلمين ودعائهم.

وعلى الرغم من أن منصب ولاية العهد لم يعد ذا أهمية خلال هذه المرحلة، إلا أن مؤسسة الخلافة أظهرت اهتمامها بمراسيم تعيينهم بحضور كبار رجالات الدولة والفقهاء والعلماء، بخاصة إذا علمنا أن هؤلاء في يوم ما سيصبحون خلفاء، فتعاد الرعاية عليهم من خلال الدعاء لهم في خطبة الجمعة بعد الدعاء للخليفة، وكذلك مشاركتهم بالمناسبات الدينية كالأعياد جنبًا إلى جنب مع الخلفاء.

المعروفة بدابة النوبة^(٣١). جاء في ترجمة عبد الملك ابن علي المعروف بالكيا الهراس: «أنه دخل يوما إلى دار الخلافة، فرأى فرس المقتفي قريبا منها فرس ولي العهد المستنجد، فقال: لا أحياء إلى زمان أرى هذه الفرس مكان هذه» (ابن النجار، ١٩٩٧: ج ١٦، ٦٣).

ومنذ اللحظة التي يتم بها إعلان ولي العهد يصبح الدعاء له ملازمًا للدعاء للخليفة في الجمع والأعياد (ابن الجوزي، ١٩٩٥: ج ١٨، ٨٥؛ ابن الأثير، ٢٠١٠: ج ١٠، ٧٦). وينقش اسمه على السكة، ويكتب بإذنا وإعلاماً بأنه صار ولي العهد الرسمي للخليفة» (الذهبي، ٢٠٠٣: ج ١٢، ٦٨٧).

وكانت صيغة الدعاء لولي العهد بعد الدعاء للخليفة: «اللهم وبلغه سؤله ومناه وأقصى أمله ومنتهاه في سلالته الطاهرة وعترته الزاهرة، عدة الدنيا والدين، وعمدة الإسلام والمسلمين، المخصوص بولاية العهد في العالمين- يذكر اسم ولي العهد- اللهم اشدد به عضده وكثر به عدده برحمتك يا أرحم الراحمين» (ابن الديبشي، ٢٠٠٦، ج ١، ٢٢٠).

وإن تعيين ولي العهد يتم ضمن رسوم متبعة ومعروفة، فإن عزله يجب أن يكون وفق رسوم أيضا. فلا يكون عزله شرعيا إلا بموافقة الخطية- حتى لو كانت الموافقة شكلية- يشهد عليها الشهود (سبط بن الجوزي، ١٩٥٢-١٩٥١: ج ٨، ق ٢، ٥٢٢؛ النويري (د ت): ج ٢٣، ١٨٥) فلما عزل الناصر لدين الله ولده أبا نصر محمدا^(٣٢) سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م اجتمع أرباب الدولة في دار الوزير نصير الدين بن مهدي العلوي، إضافة للقضاة والعلماء والفقهاء لعرض خطاب ولي العهد إلى والده الخليفة، يسأله إغفائه من منصبه. ومما جاء في الخطاب: «أما بعد، فإن أمير المؤمنين كان قد قلد ولده أبا نصر محمدا ولاية العهد في المسلمين، ورشحه بعده لإمرة المؤمنين، وألقى عليه هذا القول الثقيل، ونهج له من مرشد الدين والدنيا أوضح سبيل، مؤملا فيه الاستقلال بأعبائه والإتيان بما يبين عن اضطلاع وغنائه والتخلق بأخلاقه التي هي من أخلاق الباري مقتبسة وعلى التقوى مؤسسة، فلما أن أوان رشده وبلوغ المبلغ الذي أمل فيه سداد رأيه وقصده، رأى من نفسه القصور عن التزام شروط الخلافة، وما يجب عليه من الرحمة للأمة والرافة، فأقر بالعجز عن تأدية حق الأمة في أمره، وأشهد عليه أنه لا يصلح لها فيما مضى ولا فيما بقي من عمره، وخلع نفس مما كان أمير المؤمنين فوض إليه واعتمد فيه عليه، ولم يسع الخليفة إلا استخارة الله تعالى في إقالته، وطلب رضاه في حل عقد ولايته»^(٣٣). وبعد أن اطلع الجميع على الخطاب وتحققوا من مضمونه، كتبوا محضرا شهد الجميع بصحته (ابن الأثير، ٢٠١٠: ج ١٠، ٢٠٩؛ النويري، (د ت): ج ٢٣، ١٨٥).

الهوامش

للكتاب السبب الذي دفعه إلى تصنيفه المتمثل بحرصه على حفظ رسوم دار الخلافة-ولو نظرياً- من الضياع والنسيان، وقد أوضح ذلك في مقدمة كتابه، للمزيد، انظر: الصابئ، ١٩٦٤، ٥-٦.

(١٠) للمزيد من التفصيل حول الأسباب المختلفة التي رواها المؤرخون بشأن اتخاذ العباسيين للسواد شعاراً لدولتهم، انظر: الطبري، تاريخ الأمم، ج٧، ٣٣٨-٣٣٩؛ مجهول ١٩٧١م، ٢٤٥؛ ابن أعثم الكوفي ١٩٨٦م، ج٨، ٣٥٨؛ السيوطي، ١٩٩٧: ٣١؛ فوزي، ١٩٧٧: ٢٤٢-٢٤٧.

(١١) حول الأسباب التي دفعت المأمون إلى اتخاذ هذا القرار، انظر: طيفور، ٢٠٠٩: ٤؛ فوزي، ٢٥٢-٢٥٣.

(١٢) أستاذ الدار: من المناصب الإدارية التي ظهرت في بغداد منذ منتصف القرن الرابع الهجري. وصاحبها مسؤول عن رعاية دار الخلافة وصيانتها، وتوفير ما يلزم ساكنيها، ويتولى أيضاً الإشراف على أبواب الخلفاء. للمزيد، انظر: ابن الكازروني، ١٩٧٩: ٤٣٤؛ القحطاني، ٢٠٠٦م: منصب أستاذ الدار، ١٨ وما بعدها.

(١٣) أحد أبواب دار الخلافة، يقع بين باب البديرة وباب العامة، وعنده باب العتبة التي يقبلها الملوك والرسول إذا قدموا بغداد. ياقوت، ١٩٩٥: ج٢، ٢٥١.

(١٤) المدة التي يُمهّل فيها المسلمون لإقامة خليفة هي ثلاثة أيام بلياليها، فلا يحلّ لمسلم أن يبني بيتاً ثلاث ليالٍ وليس في عنقه بيعة. أما دليل ذلك فإن الصحابة باثروا ذلك في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- في اليوم نفسه، وقد تمت بيعة أبي بكر بيعة انعقاد في اليوم نفسه، ثم في اليوم الثاني جمعوا الناس في المسجد لبيعة أبي بكر بيعة الطاعة. أما كون أقصى مدة يمهل فيها المسلمون لتنصيب الخليفة ثلاثة أيام بلياليها؛ فذلك لأن عمر عهد لأهل الشورى وحدد لهم ثلاثة أيام، وكان ذلك على مرأى ومسمع من الصحابة، ولم يُنقل عنهم مخالفاً، أو مُنكر لذلك، فكان ذلك إجماعاً من الصحابة، وإجماع الصحابة دليل شرعي كالكتاب والسنة. أخرج البخاري من طريق المسور بن مخرمة قال: "طرقني عبد الرحمن بعد هجع من الليل، فضرب الباب حتى استيقظت، فقال أراك نائماً، فوالله ما اكتحلنت هذه الثلاث بكثير نوم". أي ثلاث ليالٍ. فلما صلى الناس الصبح تمت بيعة عثمان. صحيح البخاري، حديث رقم ٧٢٠٧. للمزيد حول البيعة لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه والظروف التي أحاطت بذلك، انظر: الطبري، (د

(١) عن الحدود السياسية للخلافة العباسية قبل عهد الخليفة المقتفي، انظر: المقدسي البشاري ١٩٧٨ م: ١٠٣-١٠٤. فقد جعلها ست كور: تبدأ من سامراء شمالاً إلى البصرة جنوباً فقط. وعن توسع حدوده خلال فترة الدراسة، انظر: فهد، ١٩٧٣: ٥-١٠. فقد غدت حدوده على النحو الآتي: من قرية العقر عند حد أتابية الموصل شمالاً، إلى عبادان جنوباً، ومن القادسية غرباً إلى حلوان شرقاً.

(٢) بكمزا: قرية تبعد عن بعقوبا فرسخين، أي ما يعادل ١٢ ميلاً. ياقوت الحموي ١٩٩٥، معجم البلدان، ج١، ٤٧٥.

(٣) تقع العتبة بباب النوبي الذي يعتبر خلال هذه المرحلة من أهم أبواب دار الخلافة العباسية، «وفيه العتبة التي كانت تقبلها الملوك والرسول». القلقشندي، (د.ت)، ج٤، ٣٣٣؛ جواد وسوسه ١٩٥٨: ٢٥٨-١٥٩.

(٤) للمزيد عن جهود الخلفاء العباسيين في سبيل استعادة نفوذهم، انظر: Rashad، ١٩٦٣، P٣٤-٦٧.

(٥) للمزيد حول نظرية العباسيين في الحكم، انظر: الماوردي، ١٩٨٩، فصل «في بيان حكم الخلافة». للمزيد حول ذلك، انظر: يوجه سي، ١٩٩٣م، ٦٣-٧٢. فقد عالج الموضوع معالجة علمية شافية.

(٦) قال الموفق عبد اللطيف البغدادي يصف جهود الخليفة الناصر في إحياء مؤسسة الخلافة: «فأحيى بهيبته الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم». السيوطي، ١٩٩٧: ٥٣٢. وأورد مثل هذا الرأي كل من: ابن الدببشي ٢٠٠٦: ج٢، ٢٣٤؛ ابن الطقطقي، ١٩٦٦: ٣٢٢.

(٧) عن الغزو المغولي لبغداد، الظروف والنتائج، انظر Howorth، ١٩٢٧، v٣، P٢٠١-٢٦٥.

(٨) استطاع الصابئ جمع مادة كتابه من خلال خدمته في ديوان الإنشاء حيناً من الزمن، وتيسر له أن يقف على شؤون تلك الدار ورسومها، وما كان بداخلها من خبايا وأسرار، وقد أتاحت له معرفة أحوال الخلفاء، فوقف على عاداتهم وأخلاقهم ورسومهم في الملبس والمأكل ونحو ذلك. الصابئ، ١٩٦٤: ١٢-١٣ (مقدمة المحقق).

(٩) إضافة إلى ذلك فالكتاب يعد وثيقة مهمة تعكس تطور المراسيم خلال العصر العباسي حتى منتصف القرن الخامس الهجري. أوضح الصابئ في تقديمه

(٢٣) لم تردنا معلومات عن دار التشريفات وتفصيل عملها ولكن من خلال النصوص التي أشارت إليها يتضح أنه كانت تتبع تنظيمًا إداريًا على رأسه رئيس ديوان التشريفات. جاء في ترجمة أبي المظفر محمد بن مقبل بن فتيان بن المنى النهراوني (ت ٦٤٩هـ): «كان من جلة العلماء، خدم في ديوان التشريفات». الذهبي، ١٩٨٦: سير، ج ٢٣، ٢٥٣. وورد في ترجمة محمد بن مقبل بن فتيان بن مطر بن المنى النهرواني البغدادي (ت ٦٤٩هـ): «وولي كتابة دار التشريفات». ابن رجب الحنبلي، ١٤٢٥هـ: ج ٣، ٥٤٩.

(٢٤) للمزيد، انظر: مجهول، ١٩٩٧: ١٩١.

(٢٥) الخلعة: ما يخلعه الخليفة أو الملك أو الأمير أو غير هؤلاء من الأعيان من الثياب على أحد من الناس، سواء في مناسبات رسمية، أو مناسبات خاصة كالأحتفالات. السامرائي، ١٩٨٦: ١٩.

(٢٦) إبريسم: بمعنى الحرير الخام. للمزيد حول أصل الكلمة والاختلاف في تفسيرها، انظر: اللقاني، ١٩٩٣: ١٦٣.

(٢٧) تولى إمرة الموصل بعد وفاة والده بدر الدين. وكان والده بدر الدين قد استولى على إمرة الموصل بعد وفاة أميرها مسعود بن أرسلان الزنكي. واستمر يحكمها مدة ٤٠ سنة من ٦١٥ - ٦٥٥هـ. وقد خلف إسماعيل والده على حكم مدينة الموصل. للمزيد انظر: ابن الفوطي، ١٩٦٢-١٩٦٥م: ج ٤، ق ١، ٣٥٩؛ ابن العماد، ١٩٨٦: ج ٧، ١٦٦، ٤٩٩.

(٢٨) كورة بين إربل وهمدان. ياقوت، ١٩٩٥: ج ٣، ٣٧٥. وهي السليمانية الحالية في شمال العراق.

(٢٩) أحد بساتين دار الخلافة العباسية يقع مقابل دار التشريفات. مجهول، ١٩٩٧: ٥٦. وأشار إليه ابن حجر في غرق بغداد سنة ٧٧٥هـ فقال: «وانفتح من بستان الأربعين الذي كان الخليفة اتخذه متنزهًا». ابن حجر العسقلاني، ١٩٦٩: ج ١، ٦٢.

(٣٠) الكشك: كلمة فارسية بمعنى القصر، وعربت قديماً بمعنى (الجوسق). وقد يختص بها القصر الريفي الذي يبني لأغراض الترويح خارج المدن. مجهول، ١٩٩٧: ١٣٨، هامش ١.

(٣١) تشير المصادر إلى أن أول من اتخذها هو الخليفة المنصور، وكان ذلك على إثر حركة الراوندية الذين

(ت)، ج ٣، ٢١٨-٢٢٢. وحول الشورى التي أوصى بها عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وأوامره في حال تأخر أهل الشورى الستة عن حسم الأمر خلال ثلاثة أيام، انظر: الطبري، ج ٤، ٢٢٨-٢٢٩.

(١٥) يقول القلقشندي: «إن بني أمية لم يتلقب أحد منهم بألقاب الخلافة، وإنما ابتداءً ذلك في الدولة العباسية. متأثر الإنافة، ج ١، ٢٢. ويؤكد ابن دحية نظرة القلقشندي نفسها، فيقول عن المنصور أنه «أول خليفة لقب نفسه، وهو أبو الخلفاء». ابن دحية ١٩٤٦: ٢٤. ونحى المنحى نفسه السيوطي بقوله: إن بني العباس هم أول من اتخذ الألقاب. السيوطي، ١٩٩٧: ٣٩.

(١٦) من أغطية الرأس، وهي خمار مقور مصنوع من الشاش الموصلي الذي يلاث على العمامة أو يطرح على الكتفين، ويتدل على الظهر. دوزي، ١٩٧٨: ٢١٢. أما طرحة الخلفاء فكانت تصنع من القصب. الإربلي، ١٩٦٤: ٢٦٨.

(١٧) ثوب يصل طوله إلى منتصف الساقين، ويمتاز بوجود كمين واسعين، يهبطان إلى المعصم. العبيدي، ١٩٨٠م: ٢٠١.

(١٨) القباء: من ملابس البدن الخارجي، ويلبس فوق الثياب أو القميص، ويتمنطق عليه. دوزي، ١٩٧١: ٢٨٥-٢٩٠.

(١٩) للمزيد عن ملابس الخلفاء الرسمية، ومنها لباس يوم التولية، انظر: القحطاني، الملابس الرسمية في الخلافة العباسية (١٣٢-٦٥٦هـ).

(٢٠) يرى الذهبي أن البردة التي توارثها الخلفاء من بني العباس غير تلك البردة التي خلعها النبي صلى الله عليه وسلم على الشاعر كعب بن زهير، إذ ينقل في قصة غزوة تبوك أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول ابن لهيعة: «كانت البردة على الخلفاء يتوارثونها ويطرحونها على أكتافهم في المواكب جلوساً وركوباً». الصابني، ١٩٦٤: ٩٠؛ السيوطي، ١٩٩٧: ٣٤.

(٢١) أحد دور دار الخلافة العباسية، كان أول من وضع أساسه وسماه بهذه التسمية الخليفة المعتضد لكنه توفي قبل أن يتمه، فلما تولى المكتفي بالله أتم عمارتها. ياقوت، ١٩٩٥: ج ٢، ٣؛ ابن الفوطي، ٢٠٠٨م، ٥٢.

(٢٢) يقول ابن لهيعة: «كانت البردة على الخلفاء يتوارثونها ويطرحونها على أكتافهم في المواكب جلوساً وركوباً». الصابني، ١٩٦٤: ٩٠؛ السيوطي، ١٩٩٧: ٣٤.

ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب البغدادي، ٢٠١٠ (ت ١٢٧٤هـ / ١٢٧٥م) تاريخ، الجزء التاسع، وبذيله الضائع، دراسة وجمع وتحقيق محمد عبد الله القدحات، ط١، دار الفاروق، عمان.

ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا، ١٩٦٦ (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت.

ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس الملطي، ١٩٩٧ (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) مختصر أخبار الدول، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي، ١٩٨٦ (١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) شذرات الذهب في خبر من ذهب، تحقيق محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق.

ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد، ٢٠٠١ (ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤م)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامراني، ط١، دار الأفاق العربية، القاهرة.

ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين، (١٩٦٢- ١٩٦٥م) (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، الجزء الرابع في أربعة أقسام، تحقيق مصطفى جواد، المطبعة الهاشمية، دمشق.

ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين، ٢٠٠٨، مناقب بغداد، دراسة وتحقيق محمد القدحات، دار الفاروق، عمان.

ابن الكازروني، علي بن محمد البغدادي، ١٩٧٠ (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، وضع فهارسه سالم الألوسي، مطبعة الحكومة، بغداد.

ابن الكازروني، علي بن محمد البغدادي، ١٩٧٩، مقامة في قواعد بغداد، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد، مجلة المورد، مجلد ٨، عدد ٤.

ابن النجار، أبو عبد الله محمد بن محمود ١٩٩٧ (١٢٤٣هـ / ١٢٤٥م) ذيل تاريخ بغداد، منشور مع تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

أحاطوا بقصره وهم يهتفون: هذا قصر ربنا. فأخذ المنصور رؤساءهم فحبس منهم منتي رجل، فغضب الباقون واجتمعوا وفتحوا السجون وأخرجوا أصحابهم منها، وقصدوا المنصور وحاربوه. فخرج المنصور إليهم ماشيا، ولم يكن في بابه في ذلك الوقت دابة، فصار بعد ذلك اليوم تربط له دابة في باب القصر لا تزال واقفة، وصارت تلك سنة للخلفاء بعده. ابن الطقطقي، ١٩٦٦: ١٦٠-١٦١.

(٣٢) يقول ابن الأثير في سبب ذلك إن الناصر أراد أن يبيع لولده الأصغر أبي الحسن علي أصغر ولديه، وكان أحب أبنائه إليه. ابن الأثير، ٢٠١٠: ج ١٠، ٢٠٩.

(٣٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان (مخطوط)، حوادث سنة ٦٠١هـ. وهذا النص غير موجود في الطبعة الهندية التي اعتمدت على نسخة شيكاغو.

(٣٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان (مخطوط)، حوادث سنة ٦٠١هـ.

المراجع

ابن أعم الكوفي، أحمد، ١٩٨٦ (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م) الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني، ١٩٦٣، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، ط١، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني، ٢٠١٠ (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ١٩٩٥ (ت ٧٩٥هـ / ١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الدببثي، أبو عبد الله محمد بن سعيد، ٢٠٠٦ (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد، تحقيق بشار عواد، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني، ١٩٦٩ (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
- ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن أبي علي، ١٩٦٤ (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) النبراس في تاريخ بني العباس، صححه وعلق عليه عباس العزاوي، مطبعة المعارف، بغداد.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، ٢٠٠٧ (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) البداية والنهاية، تحقيق محيي الدين ديب وآخرين، دار ابن كثير، دمشق.
- ابن منظور، محمد بن مكرم ١٩٩٧ (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) لسان العرب، اعتنى بتصحيحه أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن هشام عبد الملك المعافري، ١٩٩٤ (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م) السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، ١٩٥٧ (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، المطبعة الأميرية، القاهرة.
- أبو شامة، أبو محمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل، ١٩٧٤ (ت ٦٥٦هـ / ١٢٦٦م) تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط ٢، صححه الشيخ محمد زاهد الكوثري، دار الجيل، بيروت.
- أبو شامة، أبو محمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل، ١٩٩٥، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق إبراهيم الزبيق، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الإربلي، عبد الرحمن سنبط قنيتو، ١٩٧٤ (ت ٧١٧هـ / ١٣١٧م) خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، وقف على طبعة وتصحيحه مكي جاسم، ط ١، مكتبة المثنى، بغداد.
- الأيوبي، عمر بن محمد بن شاهنشاه، ١٩٦٨ (ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م) مضممار الحقائق وسرّ الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة.
- البدور، مالك، ٢٠١٣، النظام الساسي في الدولة العباسية، مكتبة السواقي العلمية، عمان.
- الخطيب، مصطفى ١٩٩٦، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الخوارزمي، عمر بن أحمد بن يوسف، ١٣٤٢هـ (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م)، مفاتيح العلوم، ط ١، (د م)، القاهرة.
- الدوري، عبد العزيز، ١٩٤٥، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد.
- الزهراني، محمد مسفر، ١٩٨٢، نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية (٤٤٧-٥٩٠هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، ١٩٨٥ (ت ٧٤٨هـ / ١٣٧٤م) سير أعلام النبلاء، تحقيق لجنة بإشراف شعيب الأرنؤوط، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، ٢٠٠٣، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- السامرائي، إبراهيم، ١٩٨٦، التكملة للمعاجم العربية من الألفاظ العباسية، ط ١، دار الفرقان، عمان.
- السبكي عبد الوهاب بن علي ١٩٩٩ (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- السيوطي، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر، ١٩٩٧ (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، تحقيق إبراهيم صالح، ط ١، دار البشائر، دمشق.
- الصايب، أبو الحسين هلال بن المُحسِن، ١٩٦٤ (ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م) رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، ط ١، مطبعة العاني، بغداد.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، (مختلف سنوات الطبع) (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) الوافي بالوفيات، تحقيق عدد من الباحثين، دار فرانزشتايز، ألمانيا.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (د ت) (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (د م) بيروت.

- العبود، عبد الكريم، ١٩٧٦، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، ط١، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
- العبيدي، صلاح، ١٩٨٠، الملابس العربية في العصر العباسي، دار الرشيد، بغداد.
- العسائي، الملك الأشرف إسماعيل بن العباس، ١٩٧٥ (ت) ١٩٧٥، العباسية (٣٥٢-٦٥٦هـ) «مجلة جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية، مجلد ٤، عدد ٧، ١١٨-١٣٦».
- القذحات، محمد، ٢٠٠٦، «منصب أستاذ الدار في الخلافة العباسية (٣٥٢-٦٥٦هـ)» مجلة جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية، مجلد ٤، عدد ٧، ١١٨-١٣٦.
- القذحات، محمد، ٢٠١١، «الملابس الرسمية في الخلافة العباسية (١٣٢-٦٥٦هـ)» جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، م ٢٤، الآداب ١، ١٩٠-١٤٦.
- القزاز، محمد صالح، ١٩٧١، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، ط١، مطبعة القضاء، النجف.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، (د ت) (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨ م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط١، شرحه وعلق عليه محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، ١٩٨٠، مآثر الأنافة في معالم دار الخلافة، عالم الكتب، بيروت.
- الكتبي، محمد بن شاكر، (د ت) (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢ م) فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- الكروي، إبراهيم، ١٩٨٢، البويهيون والخلافة العباسية، ط١، مطبعة دار العروبة، الكويت.
- اللقاني، رشيدة، ١٩٩٣، ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ، ط١، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض.
- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، ١٩٧٩، قوانين الوزراء وسياسة الملك، تحقيق، رضوان السيد، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، ١٩٨٩ (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨ م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق خالد الجميلي، ط١، دار الحرية، بغداد.
- المقدسي البشاري، محمد بن أحمد بن البناء، ١٩٧٨ (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠ م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، ١٩٥٦ (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١ م) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ٣، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (د ت) (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢ م) نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة.
- الوطواط، رشيد الدين الوطواط، ١٣١٥ هـ، مجموع رسائل رشيد الدين الوطواط باعثناء محمد أفندي فهمي، مطبعة المعارف، مصر.
- اليونيني، موسى بن محمد، ١٩٥٤ (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦ م) ذيل مرآة الزمان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند.
- جواد وسوسة، مصطفى، أحمد ١٩٥٨، دليل خارطة بغداد قديما وحديثا، ط١، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد.
- حسنين، عبد النعيم، ١٩٥٩، سلاجقة إيران والعراق، (د. م)، القاهرة.
- حمدي، حافظ أحمد حمدي، ٢٠٠٠، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- دوزي، رينهارد، ١٩٧٨، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي، منشورات وزارة الثقافة، بغداد.
- دوزي، رينهارد، ١٩٧١، المعجم المفصل بأسماء الملابس العربي، ترجمة أكرم فاضل، مطبوعات وزارة الإعلام، بغداد.
- سبط بن التعاويذي، أبو الفتح محمد بن عبد الله، ١٩٠٣ (ت ٥٨٣هـ/ ١١٨٧ م) ديوان سبط بن التعاويذي، تحقيق مرجليوث، مطبعة المقتطف، مصر.
- سبط بن الجوزي، يوسف بن قرأوغلي، ١٩٥١-١٩٥٢ (ت) ١٩٥٤ (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦ م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط١، مجلس دائرة المعارف الإسلامية، حيدر آباد، الهند، ومخطوطة أحمد الثالث من كتاب مرآة الزمان.

المراجع الأجنبية

Howorth, 1927, History of the Mongols, Vol.3, London.

Levy, Reuben, 1979, Baghdad Chronicle, Philadelphia: Porcupine.

Rashad, Mohammad, 1963, the Abbasid Caliphate (575-656 AH), London University.

سرور، محمد جمال الدين، ١٩٧٦، تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق منذ عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة.

صديقي، أمير حسن، ٢٠٠٧، الخلافة والملكية في إيران في العصر الوسيط، ترجمة إحسان الثامري، دار الجمل، كولونيا-ألمانيا.

عسيري، مريزن، ١٩٨٧، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ط١، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة.

فهد، بدري محمد، ١٩٧٣، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، ط١، مطبعة الإرشاد، بغداد.

فوزي، فاروق عمر، ١٩٨٩، الخليفة الداوية الناصر لدين الله العباسي، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

فوزي، فاروق عمر، ١٩٩٨، النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصر العباسي الأخير (٥١٢-٦٥٦هـ)، منشورات جامعة بغداد، بغداد.

فوزي، فاروق عمر، ١٩٨٨، تاريخ العراق في عصور الخلافة الإسلامية (١-٦٥٦هـ) ط١، مكتبة النهضة، بغداد.

فوزي، فاروق عمر، ١٩٧٧، «الألوان ودلالاتها السياسية في العصر العباسي الأول»، منشور ضمن كتاب: بحوث في التاريخ العباسي، دار القلم، بيروت، ٢٤٢-٢٥٩.

مجهول، ١٩٧١، أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، ط١، دار الطليعة، بيروت.

مجهول، ١٩٩٧، كتاب الحوادث، تحقيق بشار عواد وعماد عبد السلام، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

مسكويه، أبو علي، أحمد بن محمد بن يعقوب، ١٩٨٧ (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) تجارب الأمم، تحقيق أبو القاسم إمامي، ط١، مطبعة سروش، طهران.

مقدسي، جورج، ١٩٨٤، خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة: صالح أحمد العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، ١٩٩٥ (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت.